الفصل الخامس

حُقوق الزّوج
أو
واجبات الزّوجة

- الواجبات الزوجية .
- واجبات على الزوجة .

- الطاعة للزوج .
- عدم الخروج من البيت إلا بإذن الزوج .
- تربية الأولاد .
- القناعة والحرص على مال الزوج .
- قصقص طبرك .
- الاقتصاد .
- صور من الحياة الاقتصادية .
- الخدمة في الدار .
- التزين للزوج .
- النظافة .
- حسن الخلق .
- ترضية الزوج عند الغضب .
- حسن معاشرة أهل الزوج .
- احترام مشاعر الزوج .
- شكر الصنيع .
- الوفاء للزوج .
- الإحداد على الزوج .
- العفة والأمانة .
- كيف نحافظ على عفاف المرأة .

الواجبات الزوجية

الحق أن كلمة « حقوق الزوج » لا يجوز أن يأخذها الزوج المأخذ الجاف ، فذلك يجعل المرأة فى موقف المحاسبة والمؤاخذة .. وهو موقف تضيق به النفوس ضيقاً قد يؤدى إلى الانفجار . وهكذا قل فى كلمة « حقوق المرأة على زوجها » . ولو أننا استبدلنا بهذه الكلمة التقليدية فى هذه الدراسة كلمة « الواجب » لكانت أخف على النفس .

فالحياة الزوجية شركة ، رأس مالها الحب ، منه الإنفاق ، وهو مادة التعامل .. وهو حب فى الله ، وفى مرضاته .. وما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل .

فبدافع الحب فى الله يحلو للمرأة أن تعمل كل ما يُرضى الزوج ، وتساعده على الارتقاء فى مدارج التُقَى ، وعلى التخلص من الشيطان ووساوسه.

وبدافع من الحب كذلك يكدح الرجل ويُرضى زوجته ، ويعمل على الارتقاء بها فى مدارج التُقَى ، ويعصمها من انفتاح قلب أو جارحة على خطيئة .. إنهما التقيا على الإسلام، وتزوجا على سنة رسول الله ﷺ وهنا الرسول ﷺ يقول : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يُحب لنفسه » فإذا أحب المرء لنفسه الراحة واللّذه والأمن والغِنَى والكرامة والاحترام والمعونة الصادقة فى شئون الدنيا والآخرة . بل وأحب من يؤثره على نفسه .. فإنه يحب كذلك أن يمنح الآخرين - وفى مقدمتهم زوجه أو زوجته - كل هذه الرغائب من الراحة إلى درجة الإيثار .

فى ظل الحب لا تكون المشكلات ولا يُستثقل عمل ، ولاتضيق نفس بواجب ، وفى ظل الإيمان بالله مُنَزَّل الوحى على رسوله يكون التزام وصايا الله فى الحياة الزوجية طاعة لله ، والقيام بالواجب - واجب الزوجة نحو الزوج والزوج نحو

الزوجة - عمل عبادى يُسترضَى به الله . فالنهوض به إنما يكون فى رضا وإخلاص ، لا رغباً ولا رهباً من زوج أو زوجة .

من منطلق الحب .. ومنطلق الإيمان بأن آداب الحياة الزوجية المشروعة للزوجين ، إنما هى واجبات لله قبل أن تكون واجبات لأحد الزوجين .. تزدهر السعادة فى البيت ، وعندما تختلف صور الواجبات أحياناً بالنسبة لكل من الرجل والمرأة فذلك ناشىء عن الاختلاف الذى جعله الله فى طبيعة كل من النوعين : الذكر والأنثى ، فالقوة البدنية ومتانة الأعصاب ، ورجحان العقل ، واتزان العاطفة ، وما إلى ذلك من خصائص الرجولة جعل على الرجل أعباء وواجبات من نوع خاص .

والعواطف السيابة ، والمشاعر الملتهبة ، والخيال الواسع ، والضعف والرقة والحمل والأمومة وحاجة الطفل إليها مدة طويلة . وأعراض العادة الشهرية ، وما إلى ذلك من خصائص للأنوثة .. كل هذا جعل للمرأة مسئوليات من نوع خاص ، واستوجب لها حقوقاً تقابلها كذلك .

وشأن الله فى التاريخ والحياة كلها ، وفيما بثه على الأرض من دابة أن تكون أعباء الحياة موزعة بين الزوجين الذكر والأنثى، بل وأصبح من البدهيات المحسوبة فى قوانين النجاح أن توزع الاختصاصات ، وتحدّد المسئوليات ، ولا يبغى أحد على الآخر ، ولا تُنتقص كرامة واحد إلا بالخروج عن دائرته ، أو التقصير أو التجاهل لحدود الله التى وضعه فيها ، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (١) .

ويمكن أن نتناول هذا فيما يلى :

---

(١) الطلاق : ١ .

واجبات على الزوجة

• الطاعة للزوج :

يجب على الزوجة إطاعة زوجها فيما يأمرها به سراً وعلانية . حتى تكون قد قامت بما يقتضيه عهد الزواج، لأن الطاعة مجلبة للهناءة والرضاء ، والمخالفة تولّد الشحناء والبغضاء ، وتُوجب النفور وتُفسد عواطف الإخاء ، وتنشيء القسوة فى قلوب الآباء .

وما من امرأة نبذت طاعة زوجها إلا حَلَّ بها الشقاء ولحقها البلاء . وكلما زادت طاعة الزوجة لزوجها ازداد الحب والولاء بينهما، وتوارثه أبناؤهما ، لأن الأخلاق المألوفة إذا تمكنت صارت ملكات موروثة ؛ يأخذها البنون عن آبائهم والبنات عن أمهاتهن .

وقد حَثَّ عليها النبى ﷺ بقوله : « ثلاثة لا تمسهم النار : المرأة المطيعة لزوجها ، والولد البار بوالديه ، والعبد القاضى حق الله وحق مولاه » فانظر ذلك الترتيب فى ذكر الثلاثة الناجين من النار .

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين « أم سلمة » : « إذا أدّت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها ، وحركت المغزل كانت كأنها تُسَبِّح الله » .

وقال أيضا : «جهاد المرأة حسن التبعُّل » .. أى إطاعة البعل والتزين له .

وقيل له : أى النساء أفضل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « التى تطيع زوجها إذا أمر ، وتسره إذا نظر » .

وجاء بالمادة ٤١٤ من الأحكام العبرية : « متى خرجت الزوجة من بيت أهلها، ودخلت بيت زوجها ، صار له عليها حق الطاعة التامة والامتثال الكامل ، فعليها ألاّ تخالفه فى شىء مما يطلبه منها . بل تُذعن له كما تُذعن الجارية لسيدها » .

وفى العدد ٢٢ من الإصحاح الخامس من رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس : « أيها النساء .. اخضعن لرجالكن كما للرب ، لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة » .

وفى رسالة بطرس الرسول الأولى من الاصحاح ٣- العدد الأول : « كذلكن أيتها النساء : كن خاضعات لرجالكن كما للرب » .

ورُوِىَ أن أسماء بنت يزيد الأنصارى (رضى الله عنهما) أتت إلى النبى ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : يارسول الله ، إنى وافدة النساء إليك ، إنَّ الله بعثك بالحق للرجال وللنساء . فآمنا بك واتبعناك . وإنَّا - معشر النساء - محصورات . قواعد بيوتكم . وحاملات أولادكم . وأنتم معشر الرجال- فُضِّلتُم علينا بالجُمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهادة الجنائز ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وإن الرجل إذا خرج حاجّا أو مرابطاً . أو معتمراً ، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم . أفما نشارككم فى هذا الخير والأجر يارسول الله ؟

فالتفت ﷺ بوجهه الكريم إلى أصحابه ثم قال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذا عن أمر دينها ؟ فقالوا : يارسول الله ، ما ظننا امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبى ﷺ إليها ثم قال : « انصرفي أيتها المرأة ، وأعلمى من خلفك من النساء : أن إطاعة الزوج - اعترافاً بحقه - يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله » .. (أخرجه البزار والطبرانى) .

فانصرفت وهى تُهلِّل حتى دخلت إلى نساء قومها من العرب . وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ ففرحن وآمن جميعهن . وسُميت أسماء : رسول نساء العرب إلى النبى ﷺ .

وقال الإمام الغزالى فى حق الزوج على زوجته : « فعليها طاعة الزوج مطلقاً

فى كل ما طُلِبَ منها فى نفسها مما لا معصية فيه . وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة .

وأضاف النبى ﷺ طاعة الزوج إلى مبانى الإسلام (أركانه الخمسة) ، وذكر النساء فقال : « حاملات ، والدات ، مرضعات رحيمات بأولادهن ، لولا مايأتين أزواجهن - دخل مُصَلِّيَاتُهنَّ الجنة » ، وفى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « اطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء » . فقلنا : لِمَ يارسول الله ؟ قال : « يُكثرون اللعن ويكفرن العشير » - يعنى الزوج المعاشر .

* * *

• عدم الخروج من البيت إلا بإذن الزوج :

عن ابن عباس وابن عمر : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى امراة أيِّم [1] وأريد أن أتزوج ، فما حق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجه إذا أراد فراودها عن نفسها وهى على ظهر بعير لا تمنعه ، ومن حقه ألا تُعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت كان الوِزر عليها والأجر له ، ومن حقه ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يُتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب » .. (أخرجه البيهقى) .

ألا ما أجمل أن تسأل المرأة عن الواجب عليها قبل أن تسأل عن الحقوق .

وما أبدع كل حق من هذه الحقوق . فملكية ما فى البيت للمسئول عن القوت فمن المنطق ألا تمتد إلى شىء فى البيت يد إلا بإذن المسئول ، ومن المنطقى أن يكون صيام الزوجة لا مثوبة فيه ، لأنها لا تتعبد بالصوم إنما تحرض زوجها وتدفعه إلى الرذيلة إذا لم تطاوعه حين يراودها عن نفسها ، أو يطلب أن تكون

(١) الأيم : التى لا زوج لها .

على أهبة الاستعداد ، وتحت طلبه ، ومن المنطقى أن تكون التى حرمت زوجها الأنس فى بيته مجرمة أوقعت رجلاً فى وحشة ، وفى شعور بالحرمان من شىء يحب ألا يقارفه ، وجريمتها هذه قمينة باستمطار لعنة الله والملائكة .

إن خروجها يهدد العش الآمن الدافىء المستقر الراضى .. بآلام المخاوف والقلق والطموح المرذول والريبة . وهذه هى معاول الهدم للسعادة الأسرية » .

ثم قال الإمام الغزالى : وقال ﷺ : « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى قعر بيتها ، وإن صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » .

والمخدع : بيت فى جوف البيت - وذلك الفضل للستر . لذلك قال عليه الصلاة والسلام :« المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ». (أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال : حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان أيضاً).

* * *

• تربية الأولاد :

ومن واجبات الزوجة تربية أولادها ، والحَدب على صغار زوجها إن كان له صغار من غيرها . تلمح هذا من ربط القرآن المرأة بابنها ورعايته منذ يولد إذ يقول : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (١) ، وفى الحديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ؛ فالأب راع وهو مسئول عن رعيته . والزوجة راعية وهى مسئولة عن رعيتها ». ولا رعية للزوجة إلا أبناؤها وما فى بيتها من مال .

وقد امتدح النبى ﷺ نساء قريش معلّلا فضلهن على غيرهن بأنهن : « أحناهن على ولد » .

---

(١) البقرة : ٢٣٣

فالمرأة التى تترك أولادها للخدم أو للشارع ، إنما ترمى فى الهاوية بمستقبلها وبمستقبل أبنائها ، بل بمستقبل وطنها ومستقبل القيم الإنسانية ، ورحم الله شاعر النيل إذ يقول :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وكما قال نابليون بونابرت : « الأم تهز الطفل بيمينها فتثلُّ عروشاً بشمالها » .

إن الطفل يتعلم من أُمه لغة قومه . ويتعلم منها كيف يتحدث .. فى صخب مزعج أو صوت خافت ، أم صوت معتدل ؟ بل ويتعلم ما يصحب ذلك من إشارات ووسائل للتوضيح . الأُم التى تملأ البيت صراخاً إنما تصب فى هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها فى الحديث ، والأم الصادقة التى تنكر ذاتها من أجل الغير تشوفاً لمرضاة الله وإيثاراً لما عنده ، تورث أبناءها هذه الصفة التى يحتاجها الوطن أشد الاحتياج . والأم التى تحترم زوجها وتُقدِّر أهل الفضيلة والدين ، وتتحاشى الرذيلة وتنفر منها ومن صحبة أهليها ؛ تورث هذه العادة أبناءها وبناتها . فيشبون على الفضيلة نافرين من الرذيلة .. والأم التى تحرص على النظافة فى نفسها وبيتها ، كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه ، إنما تزرع هذه العادة فى أبنائها فلا يستثقلون أعباء النظافة والنظام ، لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة ولا يهنأ لهم مقام إلاَّ إذا نهضوا إلى النظافه والنظام .

وذلك أن الأم لا ترضى لأبنائها أن يكونوا على غير أفضل صفات المكارم التى تحرص عليها ، وعلى تنشئتهم عليها كذلك . ولذا صح أن يُقال : إن الجنة تحت أقدام الأمهات ، بمعنى أن فى طاعتها والانصياع لنصائحها وتوجيهاتها اللَّفظية والفعلية ما يوصل إلى الجنة .

ومن أجل مسئولية المرأة عن أولادها أُبيح لكل من المرضع والحامل أن تُفطر إذا شعرت أن الصيام يُجهدها أو يُجهد الطفل .

وجعل النبى ﷺ كذب الأم على الطفل جريمة بالرغم من تسميتها « أكذوبة » أو « كذيبة »

وما أجمل تعويد الأطفال منذ نعومة أظفارهم على التشبث بالدين ، وعلى الصلاة فى أوقاتها ، وعلى تلاوة القرآن يومياً فى جَوٍّ طيب تصنعه الأم لتحبيب الطفل فى هذه التلاوة .

ومما يؤسف له أن المنظمات النسائية اليهودية تقوم بدور تحبيب الطفل فى دينه ، وتعويده تلاوة التوراة صباح مساء ، بينما كثير من الأمهات العربيات لايُحْسِنَّ تلاوة القرآن ، وربما كُنَّ لا يعرفن القراءة والكتابة مطلقاً !!

إن الأم هى معهد التربية الذى يتربى فيه الطفل . وإذا قيل : إن كل عظيم وراءه امرأة ، فتلك المرأه أكثر ما تكون هى الأم .. وأمامى الآن صورة لعظماء خالدين كانت الأم وراءهم ، وكان لهم فى عالم الفكر والتطوير السياسى والاجتماعى والدينى آثار جلى .

* * *

• القناعة والحرص على مال الزوج :

قال الإمام الغزالى [1] : وأهم حقوق الزوج على زوجته أمران ، أحدهما : الصيانة والستر ، والآخر : ترك المطالبه بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً .

وقد هَمَّ رجل من السَلَف بالسفر ، فكره جيرانه سفره . فقالوا لزوجته : لِمَ ترضين بسفره ولم يَدَع لك نفقة ؟ فقالت : زوجى - منذ عرفته - عرفته أكَّالاً وما عرفته رزَّاقاً ، ولى رب رزَّاق ، يذهب الأكَّال ويبقى الرزاق .

---

(١) الاحياء جـ ٧ ص ١٨ - ٢٢- ط . دار إحياء الكتب العربية .

وهى سخية على زوجها سخاء خديجة أم المؤمنين .

وقد خطبت « رابعة بنت إسماعيل » أحمد بن أبى الحوارى ، فكره ذلك ، لما كان فيه من العبادة ، وقال لها : والله ما لى همة فى النساء لشغلى بحالى . فقالت : إنى لأشغل بحالى منك ، وما لى شهوة ، ولكن ورثت مالاً جزيلاً من زوجى فأردت أن تُنفقه على إخوانك . وأعرف بك الصالحين ، فيكون لى طريقاً إلى الله عز وجل ، فقال : حتى أستأذن أستاذى .

فرجع الى أبى سليمان الدارانى ، وكان ينهاه عن التزويج قائلا : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير . فلما سمع كلامها قال له : تزوج بها ، فإنها ولية لله . وهذا كلام الصدِّيقين .

قال أحمد : فتزوجتها . فكان فى منزلنا ركن من جِصّ ، ففنى من غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الأكل (أى الضيوف) فضلا عمن غسل بالأشنان [1] .

وقال : تزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمنى الطيبات ، وتطيبنى وتقول : « اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك » .

وكانت رابعة هذه تشبه - فى أهل الشام - برابعة العدوية بالبصرة .

ومن الواجبات عليها ألا تُفَرِّط فى ماله ، بل تحفظه عليه . قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لها أن تُطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرُّطَبَ من الطعام الذى يُخاف فساده ، فإن أطعمت - عن رضاه - كان لها مثل أجره . وإن أطعمت - بغير إذنه - كان له الأجر وعليها الوزر » (أخرجه أبو داوود الطيالسى والبيهقى من حديث ابن عمر) .

---

(١) الأشنان بديل للصابون من الحشائش .

وأخرج أبو داوود : قالت امرأة : يارسول الله .. إنَّا كَلٌّ على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا . فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال : « الرُّطَبُ تأكلنه وتهدينه » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة : « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها - غير مفسدة - كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

فالقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قمر بيتها ملازمة لمغزلها [1] . لا يكثر صعودها واطلاعها . قليلة الكلام لجيرانها . لا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول . تحفظ بعلها فى غيبته . وتطلب مسرته فى جميع أمورها ولا تخونه فى نفسها وماله . ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فمختفية ، فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها ، لا تتعرف إلى صديق بعلها فى حاجاتها (حرصا على كرامته) . بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه . همها صلاح شأنها وتدبير بيتها ، مقبلة على صلاتها وصيامها .

قال المرحوم على فكرى [2] : يجب ألا تطلب الزوجة من زوجها ما لا تمس الحاجة إليه من مأكل أو ملبس أو غيرهما . فقد قال سبحانه : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] . فلا يسوغ لها أن تطلب إلاَّ ما يكون فى طاقته . إذ بتكليفه ما لا يطيق تُسئ إلى نفسها بعد إساءتها إلى زوجها ، إذ تضعه فى مركز حرج لا تحيق نتائجه السيئة بغيرها .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أعظم النساء بركة أقلهن مؤنة ».

وثق أحد دعاة الإسلام بزوجته الأمينة وثوقاً كبيراً ، وكان يسمع منها الحديث

---

(١) هذه لغة عصر الغزالى ، ولكل عصر آلاته وأعماله المنزلية .

(٢) سعادة الزوجين جـ ٢ ص ٩٨ .

(٣) البقرة : ٢٣٦

عن الغلاء كما يسمع عنه خارج المنزل .. وقد ترك لها تدبير المنزل حتى فى اقتصادياته .. وذات يوم طالبته بقروش لم تكن معه .. وقد اعتادت - بعد انتهاء المبلغ الذى اتفق عليه نفقات للبيت - أن تعود إليه فى أثناء اشتغاله بمكتبه ومطالعاته بالمنزل تطلب تكملة ، فكان لا يبخل ولا يناقش ، لكيلا يضيع الوقت ، ولثقته فى أمانتها .. وفى هذه المرة لم يجد معه ما تطلب فكان إعتذاره غير مقبول لديها ، ولا مقبول لدى أهلها ، مما أدى إلى الشقاق فالطلاق .

إنه رجل اعتاد ألا يمد يده للآخرين ، وكان يُحب أن يكون فى مرتبه كفاية ، خاصة وهو من ذوى المؤهلات العالية ، الذين يتمتعون ببعض الدخول الإضافية .. ولا سيما الدخل غير المنظور الذى يتمثل فى تخلصه من جميع «المكيفات» وأعباء السهرات خارج المنزل .

مع هذا كله ، عجز المرتب والدخل الإضافى والدخل غير المنظور عن الوفاء بمطالب الزوجة فاعتبر مقتراً .. وأرهق ، فكان المطلب البسيط جداً هو القشة التى قصمت ظهر البعير .

ولقد كان فى هذا الأسلوب ما جعل العلاقة الزوجية تنتهى بشر صورة . وما جعل الزوج يتصور امرأته (بالوعة) أو (أخطبوطاً) . وما جعله يخاف شر كل امرأة ، ولا يتخيل وجود الصالحة المستقيمة .. مما أشقاه شقاءً عطّل إنتاجه العلمى كثيراً ، حتى أشرق نور الرجاء فى الله .. فبدأ يفرك عينيه ليفتحهما على الأمل المرجو .

بل إن ضغط المرأة على زوجها بما يُرهقه قد يُعرِّضه إلى الكسب غير المشروع ، وهذا ما يقضى على مستقبله فى الدنيا والآخرة ، بل ومستقبلها هى وأولادها كذلك ، فالحاجة منزلق إلى الكفر والجريمة .

أخرج الترمذى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « خذوا العطاء ما دام عطاء . فإن صار رِشوة على الدين فلا تأخذوه ، ولستم بتاركيه ، تضعكم الحاجة والفقر » .

وقال البيهقى فى الزهد : عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه ، إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ، ومن جحر إلى جحر . فإن كان ذلك لم تُنَل المعيشة إلا بسخط الله ، فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يد زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد كان هلاكه على يد أبويه ، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يد قرابته أو الجيران » . قالوا : كيف يارسول الله ؟ قال : « يُعيِّرونه بضيق المعيشة ، فعند ذلك يُورد نفسه الموارد التى يُهلك فيها نفسه » .

ومن هنا فقد كان من أدب نساء السَلَف رضى الله عنهن - إذا خرج الرجل من منزله - أن تقول له امرأته أو ابنته : « إياك وكسب الحرام ، فإنّا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار »[1] .

* * *

• قصقص طيرك :

فى المثل المصرى : « قصقص طيرك لا يلوف بغيرك » أى قص أجنحة طائرك حتى يظل عاجزاً عن الطيران بعيداً عنك ... وهو كناية عن تعجيز المرأة رجلها عن الزواج بأخرى . وذلك بجعله لا يملك المال الذى يتزوج به . إما عن طريق إرهاقه بالمطلوب للبيت من الكماليات . وإما ببذل أمواله وتبديدها على أهلها أو أصدقائها .

وهى سياسة خاطئة ، إذ أنها تجعل الرجل يشقى كثيراً - ويعمل ليل نهار حتى يجهده العمل فيكره الحياة ويعيش فى نكد يظهر أثره فى حديثه مع زوجته ، وفى شجاره المستمر الذى ينتهى إلى ما خشيت منه الزوجة ، وهو طلاقها وزواجه بغيرها .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى : الجزء الثانى .

وكان من الخير لها أن تحتبس طيرها بالطريق الطبيعى .. الحب ، وإظهار حسن تدبيرها لاقتصاديات منزلها .. فإنما يسقط الطير حيث يرى الحب .

فبالحب تحسن المعاشرة وتطيب الإقامة مع المحبوب . وبحسن تدبير المنزل يستريح الرجل من العَناء ، ويتوافر له الوقت الذى يجلس فيه مع أولاده ، يُسهم فى تربيتهم بتجاربه وأقاصيصه .

* * *

• الاقتصاد :

قال المرحوم على فكرى : الاقتصاد معناه حسن التدبير ووضع الشئ فى موضعه . وهو روح المعاملة ، ودعامة الحياة الزوجية . وهو الوسط بين الإفراط والتفريط . وقد أمر الله به ونهى عن الإسراف والتقتير حيث قال عز وجل : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ (١) .

وقال ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغِنَى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق أيام فى يوم واحد .

وقال معاوية : حسن التدبير نصف الكسب ، وهو نصف المعيشة .

وقال أبو حنيفة : لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عِرضه ، ويصل به رحمه ، ويستغنى به عن لئام الناس .

---

(١) الاسراء : ٢٩ .

وربة المنزل هى المُكلّفة بتدبير شئونه ، ولا يغنى الرجل كسبه شيئاً إذا لم تقتصد زوجته ، فإن معظم المال يذهب فى سرف النساء وخيلائهن ، وإذا لم تكن الزوجة مقتصدة فقد عرّضت حياتها وحياة أسرتها للشقاء والبلاء .

فالمرأة مسئولة عن استخدام ما لديها من المال والوقت فى خير الطرق ، كما أن كسب المال من شأن الرجال . فإن أحسنت التدبير تمكنت من أن تعين زوجها ، وتزيد سرور الأسرة ونعيمها .

وليس الاقتصاد معرفة استعمال الدرهم فحسب . بل يشمل الترتيب والنظام والعمل والعناية بكل أمور المنزل . فالملابس التى تعنى بها تطول مدة استعمالها ، والأثاث الذى يتعهد بالتنظيف وحسن الترتيب لا يبلى سريعاً .

أما الزوجة المسرفة فهى عدوة لنفسها ، ونكبة على زوجها . تهلك بيدها ثمرة أعماله ، وكم من امرأة هدمت بيتها بسوء تصرفها ، وكم من سيدة أحيت موات منزلها بحسن تدبيرها .

وليس احترام السيدة متوقفاً على غلاء ملابسها وكثرة حليها وجوهرها ، بل على جميل خصالها وحسن سمعتها واقتصادها .

هذا .. وإن ارتقاء شأن الأسرة وسعادة الرجل ومستقبل الأطفال متوقف على حسن تدبير ربة البيت وصلاحها .

وقد أوصت سيدة ابنتها فقالت : لا تُكلفى زوجك إلا ما يطيق طبقاً للأحوال. وارفعيه بيدك عن مواطن الضعف والضيق ، فحمل الصخور أخف من ثقل الديون .

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

* * *

• صور من الحياة الاقتصادية :

ذات الدخل المحدود تستطيع أن تحمى أسرتها ذل الحاجة إذا هى تريثت فى شراء الفاكهة والخضروات أول ظهورها .. ثم اشترت لأسرتها حاجاتها بعد ذلك بقليل ، وتستطيع أن تتعرف مواسم تخزين السمن والبصل والبقول والليمون وصنع المربى من الفواكه عند كثرتها .

تستطيع أن تكسب قلب زوجها باقتصاد يرى الزوج ثمرته ، فتنسج بهذا حول قلبه ستاراً جديداً لا تنفذ إليه القيان الحسان .

اضطر فتى إلى اقتراض ثلاثين جنيهاً فى احتفال زواجه ، وأهمه الأمر حتى رأت عروسه ذلك فى وجهه عقب زفافها إليه . ولما كشفت الأمر خلعت سواريها وقالت : بعهما ، واجعل دينك عندى بدلاً من الآخرين . واستجاب لرغبتها . وأعطاها من مرتبه ثلثيه ، وجعل لنفسه الثلث . وأخذت الزوجة توفر من مصروف المنزل ، وهو يوفر من مصروفه . حتى إذا اكتمل معه ثمن سوارين ، أخذها إلى الصائغ فاشترى لها سوارين أعجباها . فقالت : هيا إلى الساعاتى لنرى ساعة جميلة ، وهناك فوجئ بأنها تدفع ثمناً لساعة رائعة ، وتأخذها وتقلده إياها قائلة : مبارك . كلٌ يدبر من أجل لحظة يُسعد فيها الآخر ، فما أحلاها ليلة عقدا فيها بتدبيرهما وإخلاصهما عقداً جديداً للثقة والحب المتبادل .

وآخر ضغطت الظروف التجارية عليه ، فأراد اقتراض مبلغ من زوجه ذات الأساور الذهبية السميكة ، ولكنها رفضت ذلك الرجاء الباكى فى عينيه ، فرفض الحياة معها إلى الأبد .

وخطب إنجليزى سكِّير فتاة فاشترطت عليه يوم زفافها أن يعطيها كل يوم ثمن كأس مما يشربه ، وبَرَّ بوعده .. فلما اكتمل الحَول [1] قال لزوجته : أودُّ لو أمكننا أن نذهب إلى بيت أبيك ونعيِّد فيه ، تذكاراً لزواجنا .

---

(١) الحول : العام .

فقالت : ما يمنعنا من الذهاب ؟

قال : يمنعنا الإفلاس .

قالت : أتذكر أنك تعطينى كل يوم ثمن كأس من الشراب ؟

قال : نعم .

قالت : أما أنا فلا أشرب مسكراً . ولن أشرب أبداً .. هذا هو كل ما أعطيتنى رصدته للزمن . فقام إليها يُقَبِّلها وأخذ يعانقها .. وقال : هيا إلى بيت أبيك .. ولن أشرب مسكراً أنا كذلك بعد اليوم .

وقد قيل : المرأة تبنى البيت ، والمرأة تخربه . فهى أصل تقدمه وسعادته ، وهى علة تأخره وشقائه .

* * *

• الخدمة فى الدار :

« من أخص الأعمال الواجبة على النساء مباشرة أعمال المنزل وإدارة شئونه وتدبيره ».

وفى الشريعة العبرية : « الزوجة مكلفة بتهيئة الطعام ، وغزل الكتان أو الصوف اللازمين لكسوتها وكسوة زوجها وأولادها ، وخياطة هذه الملبوسات وترقيعها وغسلها ، وتنظيف بيتها والاعتناء بأمره ، وبإرضاع أولادها ، وتربية بناتها وتعليمهن ما يلزم لهن ، وملاحظة أحوال العبيد والجوارى والنظر فى شئونهم وأحوالهم » (انظر المادة ٤١٥ فى الأحكام العبرية) .

وقد جاء بالمادة ٤١٧ منها : « مهما بلغت ثروة الزوجة ، ومهما كان مقدار المال الذى دخلت به للإعانة على حوائج الزوجية ، فإنه يجب عليها القيام بالأعمال اللازمة لبيتها ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لأن البطالة تؤدى إلى فساد الأخلاق » .

أما الشريعة الإسلامية فإن هذه الأعمال واجبة على المرأة ديانة وإن كان لا يجبرها القاضى عليها ، كما فى « الفتاوى الظهيرية » و « البحر الرائق » .

وقد قضى النبى ﷺ على ابنته فاطمة بخدمة البيت ، وعلى « علىٍّ » ما كان خارجاً عن البيت من عمل . (رواه الجوزجانى من طرق) [1] .

وإنما لم يكلف الإسلام الزوجة الخدمة نصاً ، منعاً لظلم الرجال ولسوء معاملتهم للنساء ، لأن الكثير من الرجال يكلفون نساءهم أشق الأعمال وأصعبها مع ورود عدم التكليف بالمرّة .

وفى افتتاح مطبخ وطنى بانجلترا يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٩١٢ ألقى « روبرست » وزير العمل والعمال البريطانى خطبة جاء فيها : « إذا لم تبذل البنات البريطانيات مجهوداً فى سبيل الحياة المنزلية ، فإن البنات الفرنسيات سيحللن هنا ، لأنهن طاهيات وعالمات فى آن واحد ».

وقالت كاتبة إنجليزية : « لقد اجتمعت بمئات من نساء أمريكا اللواتى تربين فى المدارس وتزوجن بالأطباء والمحامين ورجال الصحافة والقساوسة ، فلم أجد فى منزلهن خادمة ، بل كلهن يعملن فى أعمال البيت بأنفسهن ، حتى غسل الملابس وكيها » .

وجاء فى رسالة من باريس أن المدموازيل « استانسبيوف » البلغارية قد عينت فى وظيفة بالوكالة البلغارية السياسية فى واشنطن . وكان لهذه الآنسة شقيق يدرس الشريعة فى « السربون » بباريس ، فلما بلغه النبأ أبرق إليها قائلا: « إن البيت مركز المرأة ، وشغلها هو تربية الأولاد ، لا المجادلات السياسية . وتنظيم الموائد والأسِرّة ، لا إبرام المعاهدات . والخياطة ، لا عقد المؤتمرات . ولذلك فإنى - بدلاً من أن أهنئك بوظيفتك - أنحى عليك باللائمة ، عن اخلاص نية ، وبروح الرفق والحنان »[2] .

---

(١) تربية المرأة والحجاب : لمحمد طلعت حرب ص ٥ طبعة المنار سنة ١٣٢٣ هـ .
(٢) الأهرام : ١٩٢١/٩/١

وأضرب خدم القصر الملكى بإسبانيا يوماً عن العمل ، فقامت الملكة بنفسها هى وبناتها . وخلعن عنهن ثياب العز ، ودخل بعضهن المطبخ وأعددن الطعام ، ونظف البعض الآخر القصر والأثاث ، حتى عرف الخدم أنهم فى منزل تستطيع ربته وبناتها الاستغناء عنهم فى كل الأوقات . فعادوا إلى الملكة نادمين .

وأوصت أم ابنتها فيما يتعلق بأمور المنزل فقالت : يا ابنتى .. البيت مملكة صغيرة . والعاقلة من تسوس هذه المملكة بحكمة وحسن إدارة ، وتعطى كل فرد من أفرادها حقه ، فتحسن معاملة زوجها ، وتربية أولادها ، ومعاملة الخدم ، لتكون محبوبة من زوجها ، محترمة من أولادها ، مطاعة من خادمتها ، مشكورة من آلها ، مقبولة عند الله والناس ، فترفع مملكتها إلى ذروة السعادة ، وترقى بأسرتها قمة الراحة والمجد ، أما المرأة الجاهلة التى لا تُحسن القيام بإدارة منزلها ، ولا تقوى على سياسة مملكتها فإنها تسقط من نظر زوجها وأولادها وخدمها أيضاً . وتهوى بأسرتها إلى وهدة البؤس والشقاء .

فإذا قيل للمرأة الجاهلة : إن ملابس أولادك ليست نظيفة ، أجابت : إن الذنب على الخدم . وإذا قيل لها : إن أولادك يتفوهون [1] بما لا يليق . أجابت : إنهم تعلّموا ذلك من الخدم ، وإذا كان المنزل محروماً من النظافة والترتيب ، أو الأطعمة غير ناضجة أو متقنة الطبخ ، أو ... أو ... إلخ ، نسبت ذلك كله إلى الخادمات تلومهن ، وهى أحق منهن باللوم . فالذنب ذنبها والخطأ راجع إليها .

والرجل - يا ابنتى - إن لم يكن مسروراً من حسن إدارة منزله وراحة أفراد أسرته ، وكان سبب ذلك جهل امرأته ، فلا بد أن ينفر عنها ويهرب منها ، مهما يكن بفؤاده من الحب والميل إليها .

---

(١) يتفوه : يتكلم .

شرف المرأة - يا ابنتى - هو أن تقوم بواجباتها النسائية وأمورها المنزلية ولا تترك زوجها يفكر فى غيرها ، أو يطلب سواها لراحته وترتيب منزله .

قال الإمام الغزالى : ومن آداب الزوجة أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها . فقد رُوِىَ فى الصحيحين عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شئ غير فرسه وناضحه (أى بعيره الذى يحمل له الماء) فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسوسه ، وأدق النوى لناضحه ، وأعلفه ، وأستقى الماء وأخرز غربه (أى دلوه) وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ حتى أرسل إلىَّ أبى بجارية . فكفتنى سياسة الفرس . فكأنما أعتقنى .

ولقيت رسول الله ﷺ يوماً ومعه أصحابه ، والنوى على رأسى ، فقال ﷺ : أخ ، أخ - لينيخ ناقته ويحملنى خلفه . فاستحييت أن أسير مع الرجال . وذكرت الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس . فعرف رسول الله ﷺ أنى قد استحييت ، فجئت للزبير وحكيت له ما جرى . فقال : والله لَحَمْلُكِ النوى على رأسك أشدُّ علىَّ من ركوبك معه .

* * *

• التزين للزوج :

قال الغزالى : « قال الأصمعى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة [1] وبيدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟! فقالت :

وللّـه مـنى جانب لا أضـيعه ... وللهَّو منّى والخلاعة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له .

ومن الأسف .. أن نرى كثيرات من السيدات يهملن الزينة والتجمل منذ اليوم

(١) يدها محمرة بالخضاب (الحناء) .

الثانى من الزواج ، وهذا تقصير فاحش ، ربما كانت الزوجة لا تشعر به ، لاعتقادها ارتفاع الكلفة بينهما ، ولكن لهذا تأثيراً سيئاً فى نفس زوجها ، ولا سيما إذا آنس منها التجمل والزينة قبيل خروجها لزيارة قريباتها وصديقاتها .

والحقيقة أن التجمل لا يكون إلا للزوج تطييباً لخاطره ، وهو واجب عليها وحق له لا يسقط وإن مضى الشطر الأعظم من الحياة .

وليس القصد من حض المرأة على التجمل لبعلها أن تضيع وقتها الثمين أمام المرآة معجبة بجمال صورتها ، أو بطول شعرها ، أو باعتدال قوامها ، فإن الإعجاب بالنفس دليل على ضعف العقل .

وإنما القصد حثها على النظافة والترتيب . وهو يتناول تسوية الشعر ، وتنسيق الملابس على وجه خال من آثار التصنع والتكلف .

وما أرقى خلال المرأة : إذا أحست بحضور زوجها فهبت للقائه بأبهى مظاهرها من نظافة ثياب ، وطلاقة وجه ، وبسمة ثغر . لأنه ما من امرأة قابلت زوجها على هذا الوجه إلا حازت فى قلبه المكانة العالية والمنزلة السامية [1] .

* * *

• النظافة :

النظافة للمرأة ألزم لها من الجمال . لأن الجمال لا يلبث أن يزول متى زالت نضارة الشباب . أما النظافة فعادة باقية ما بقيت المرأة . ولذا حث عليها الإسلام .

وقد قال جان جاك روسو :... وليس ينفر الإنسان من شئ فى العالم أكثر مما ينفر من المرأة القذرة .

ولا شك أن المرأة التى تُهمل نظافة نفسها تعمل على إبعاد زوجها بيدها

---

(١) سعادة الزوجين جـ ٢ ص ٩٥ .

ليرتمى فى أحضان أخرى نظيفة . إذ يجب على المرأة أن تُنَظِّف المنزل وجميع ما فيه من الأمتعة والأثاث . فلا يعشش العنكبوت ويتراكم الغبار عليها ، وعليها بعد الفراغ من أعمالها اليومية أن تستحم قبل حضور زوجها من أشغاله ، ثم تلبس ملابسها الفاخرة كما لو كانت فى انتظار عظيم عزيز .

وقد أوصت امرأة ابنتها فقالت : يا بنيتى ... لا تنسى نظافة بدنك . فإن نظافته تُحبب زوجك إليك . ونظافة بيتك تشرح صدرك وتُصلح مزاجك وتُنير وجهك ، وتجعلك جميلة ومحبوبة ومكرَّمة عند زوجك ، ومشكورة من أهلك ومن ذويك وأترابك وزائريك . وكل من يراك نظيفة الجسم والبيت تطيب نفسه ويسر خاطره .

هذا فضلاً عما للنظافة من تأثير فى توطيد أركان الصحة والصفاء ، وما للقذارة من أثر فى جلب الأمراض والشقاء [1] .

وكل هذا يجب أن يكون - إلى جانب الحكمة الواضحة منه - صادراً عن الاعتقاد بأنه استجابة لأمر الله وطاعة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [2] حتى لا نُحرم الأجر فى الآخرة ، وثمار النظافة فى حياتنا الأولى .

ومما يندرج فى باب النظافة حلق العانة أو انتيارها (أى إزالتها بالنورة وهى مسحوق يُزال به شعر العانة) .

وكذلك من السنن نتف الآباط وتقليم الأظفار ، ويُسن أن يكون كل ذلك يوم الجمعة ، ويكره أن تبقى الأصابع دون قص الأظافر أكثر من عشرة أيام .

وفى الحديث الشريف : « من الفطرة حلق العانة [3] ، وتقليم الأظفار ، ونتف الآباط ، والختان » .

---

(١) سعادة الزوجين ، جـ ٢ ، ص ٨٨ - ٨٩ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) العانة : الشعر الذى حول أعضاء التذكير والتأنيث ، وحلقه يُسمى الاستحداد ، وإزالته بالمسحوق يسمى « التنور » . ويقال للمرأة التى تفعله : تنورت وانتارت .

والفطرة هى الدين الذى فطر الله عليه الشعوب المستقيمة ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومن الفطرة تنظيف المغابن - وهى الأرفاغ والآباط - والأرفاغ جمع رُفغ : بواطن الأفخاذ عند الحوالب . وفى حديث عكرمة : « من مَس مغابنه فليتوضأ » وذلك منه احتياطاً . فإن الغالب على من يلمس ذلك الموضع أن تقع يده على ذكره .

وقال اللُّغويون : الرفغ : مابين الأثنيين (أى الخصيتين) وكل ما ثنيت عليه فخذك مما من شأنه أن يجتمع فيه الوسخ والعرق .

وفى الحديث أن النبى ﷺ صلى فأوهَم فى صلاته (أى أسقط من صلاته شيئاً وهماً وسهواً) . فقيل له : يارسول الله . . كأنك قد أوهَمتَ . قال : « وكيف لا أوهم ورفغ أحدكم بين ظفره وأنملته » ؟!

والمعنى : أن أحدكم يحك الموضع من جسده فيتعلق درنه ووسخه بأصابعه فيبقى بين الظفر والأنملة . وإنما أنكر من هذا طول الأظفار وترك قصها حتى تطول . فتكثر الحركة فى الصلاة ، فتبطل أو يذهب خشوعها على الأقل .

فليعتبر بهذا نساؤنا وفتياتنا ورجالنا وفتياننا الذين شاعت فيهم اليوم بدعة ترك الأظفار . ولست أدرى - ولا المنجم يدرى - أى هدف يترامون إليه بذلك !! هل يردن بذلك أن يكن كالقطط فى مخالبها . وفى غدرها - عندما تشاء الغدر- مهما أكرمتها ؟ . أيردن أن يجعلنها مجمعات للأوساخ ؟

وربما يجنب الرجل أو المرأة فلا يصل الماء إلى البشرة لوجود الحائل بين الماء والبشرة ، وهو ذلك الوسخ الذى يتجمع بسبب طول الأظفار ، ولقد كان النبى ﷺ يأمر الأعراب الذين أسلموا بالتقليم . ويُنكر عليهم ما يُرى تحت أظفارهم ، ففى الحديث الشريف : « قُصُّوا أظفاركم ، وادفنوا قلاماتكم ، ونَقُّوا براجمكم ، ونَظِّفوا لثاتكم من الطعام ، ولا تدخلوا علىَّ قُلحاً بخراً » .

---

(١) الروم : ٣٠

والقَلح : صُفرة الأسنان . والبخر : نتن الفم . والبراجم : هى العقدة التى فى ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ . والمراد بدفن القلامة : تغييبها تحت الأرض .

قال البرقوقى : « جمال المرأة وتجملها مدرجة[1] ميل الرجل وافتتانه بها . وقوام الزينة النظافة ، ولتحذر المرأة كل الحذر أن يقع بصر الرجل منها - أعنى زوجها - على شئ يشمئز منه وينفر ، من وَسخ ، أو شعث ، أو رائحة مستكرهة ، أو شئ من هذا القبيل .

يجب على المرأة أن تتجمل لبعلها . وذلك بتنظيف البدن وما يحيط به من ثياب ، وتنظيف البدن بتنظيف البشرة بالماء . وهذا بإدمان المضمضة والاستنشاق والاستنثار (أى إخراج فضلات الأنف) . وغسل الرجلين ، ومسح الرأس (أى العناية بنظافة الشعر) . وهذا ما يُعَبَّر عنه فى الإسلام بالوضوء . وبالاغتسال ، وهو الذى يُعبَّر عنه بالغُسل من الجنابة . أو من الحيض والنفاس . أو الأغسال المسنونة . كغُسل الجمعة والعيدين والتراويح .

كما تكون النظافة بالعناية بالأسنان وبتسويكها وتخليلها ، وبتنقية العين وتكحيلها ، وبتقليم الأظفار وتسويتها . وبتنظيف المغابن وإزالة ما بها . وبحلق العانة أو انتيارها ، وبالخفاض [2] ، وما إلى ذلك من كل ما تعوزه النظافة عن سائر أعضاء البدن .

ويُغنى عن السواك الفرشاة بنية السواك سواء مع المعجون أو الصابون أو بدونهما .

وقد عُنِىَ العرب بنظافة أسنانهم فى الجاهلية والإسلام . وكان أفضل ما يستاكون به من فروع شجر الأراك . الذى تراه يباع أمام المساجد والأضرحة الكبرى .

---

(١) مدرجة : طريق .

(٢) الخفاض والختان : يُسمى بلغة المصريين الطهارة ، وأكثر ما يستعمل الخفاض فى ختان الأنثى .

وقد ورد الحض على استعماله فى الأحاديث الشريفة ، وأصفق [1] القدماء وجمهور المحدثين من الأطباء على أنه أنفع الأشياء . فهو يجلو (أى يصقل) الأسنان ويقويها ، وهو يشد العمور (وهو اللحم النازل بين الأسنان) ويمنع الحفر (وهو الصُفرة التى تعلو الأسنان) ، ويطيب النكهة (أى رائحة الفم) . وبلغ ثمن سواك الأراك فى إنجلترا جنيها استرلينياً بعد نشر دراسة علمية عن مزاياه عام ١٩٧٥ ، وصُنِعَ معجون أسنان فيه أراك .

وكان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ يغدون ويروحون والسواك على أذانهم . ولم يكن فى عهد النبى ﷺ أكثر استعمالاً للسواك من نسائه رضوان الله عليهن .

ويُستحب السواك عند كل الصلاة ، وعند كل وضوء ، وعند تغير النكهة بالنوم أو أكل ما تُكره رائحته كالبصل ، وعند أى لقاء لآخرين .

وقالوا - فى علة طيب الفم والبخر : من كثر ريقه وسال لعابه لا يعرض له الخَلُوف (أى تغير ريح الفم لتأخر الطعام) ، ومن ثَمَّ كان النشاط والحركة ومناجاة الآخرين من عوامل إسالة الريق وطيب النكهة . لما يسببه من جريان الريق .

* * *

● حُسْنُ الخُلُق :

« أجمع الحكماء على أن المرأة الحسنة الخُلُق تستميل قلب زوجها وتجمع حوله بنيها وذوى قرباها ، ولا ينفر منها أحد . ولا سيما إذا اقترن حُسن الخُلُق بلطف المحادثة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً ، وألطفهم وأبرهم بأهله » .

---

(١) أصفق : أجمع و اتفق .

وقال عمر بن الخطاب : لم يُعطَ عبْد - بعد الإيمان بالله تعالى - شيئاً خيراً من امرأة حسنة الخُلق ، ولم يُعطَ - بعد الكفر بالله تعالى - شيئاً أشد من امرأة بذيئة اللسان . سيئة الخلق .

وقال بعض الأدباء : حَسن الخُلق : من نفسه فى راحة ، والناس منه فى سلامة وأمان ، وسَيئ الخُلق : من نفسه فى عناء . والناس منه فى بلاء .

وجاء بالمادة ٤٣٢ من الشريعة العبرية : « عيوب الخُلق التى تُجيز الطلاق هى : الوقاحة والشرثرة والوساخة والإسراف . والشكاسة والعناد ، والنهمة والبطنة والتأنق فى الطعام . وحب الفخفخة والبهرجة » .

وجاء فى بعض الكتب الأدبية : إذا ذهبت محاسن الخِلقة بتوالى الأعوام فإن محاسن الخُلق تبقى على الدوام .

المرأة الجميلة الطبع المهذبة الأخلاق هى التى يبدو كل تصرف من تصرفاتها حسناً للمتأمل البصير . والمرأة الحسنة الخلال لا تروى على مسمع زوجها إلا ما يحسن سماعه .

أما المرأة السيئة الخُلق فتثير الهموم وتجلب الأتراح وتُنَغِّص العيش ، وتذهب بالراحة ، وتطوى بساط الأنس والانشراح .

وفى الحديث : « من صبرت على سوء خُلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون » .

وقلتُ يوماً لسيدة : إحبسى لسانك عن زوجك . فالرجل لا يحب أن يعيش مع سليطة اللسان . والمرأة التى أنجبت لزوجها ولداً إن لم تُدِم المعيشة معه على الحب له أدامتها من أجل أولاده ، فعليها أن تُلَطِّف حدة الكراهية باعتياد إطفاء غضب الزوج بكلمة معسولة ، أو ابتسامة ولو خافتة ، وبتقرب حان يمسح متاعب اليوم عن كاهله ، فبهذا يزرع فى قلبه الحب لليد التى تَربُت على كتفيه ، فإذا به ينقلب إلى هذه اليد يُقَبِّلها ، وإلى صاحبتها يحتضنها ، فيبادلها حباً بحب ، وحنواً بحنو .

وقد قال بعض الحكماء : العيش كله مقصور على الزوجة الهاشة الباشة والبارة الصالحة . والبلاء موكّلٌ بقرينة السوء التى لا تسكن النفس إلى معاشرتها . ولا تَقَرّ العين برؤيتها . وقد جاء فى الحِكم : « المودة جسم روحه بشاشة الوجه » .

حكمت إحدى المحاكم الأجنبية على سِكّير بأقل مدة الحبس المقررة عقوبة حين قال للقاضى إنه لا يطيق أن يجلس فى بيته من مضايقات زوجته . وصرخ السِكّير : لا يا سيدى القاضى ، أرجوك أن تحكم بأطول مدة حبس مقررة للسِكّير ، لترحمنى !! . فقال القاضى مبتسماً : أنت مدمن والقانون يفرض أقصى العقوبات للإدمان . وعندى أن أقصى العقوبة أن ترجع إلى زوجتك من السجن عاجلاً .

واشتد إيذاء امرأة لداعية إسلامى معاصر ، وطبقاً للسنة غادر المنزل فى جوف اللّيل حتى يُسَكّن ثائرة الغضب المشتعل داعياً ربه : « ربّ السجن أحبُّ إلىّ . اللّهم ارحمنى من هذه المرأة ولو أسبوعين فى السجن الحربى » . وما هى إلا شهر حتى استُجيب له الدعاء . ولما أفرج عنه وعجز عن إصلاح بيته قال وهو يطوف بالمسجد الحرام : اللّهم إنى عجزت ، وعجز أهل العلم معى عن حل مشكلتى . وضعتُ على بابك حملى فأرفعه عنى . وافعل لى الخير ، وليس لى بعد ما بذلته حَوْلٌ ولا طَوْل ، ولا حول ولا قوة إلا بك .. وإذا باللّه يُعَوّضه زوجاً خيراً من زوجه علماً وحسباً ، ونسباً . وشباباً وقواماً وحديثاً ، ونعْمَ جزاءُ الصابرين .

وحُكِىَ أن قارئاً [1] كان يرتل ورده القرآنى ، فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [2] : أى تفرحون وتسرُّون .. وضع المصحف على كرسيه

(١) سعادة الزوجين لعلى فكرى جـ ٢ ص ٩٧ ظ . المعارف سنة ١٩٢٣ (١٣٤١هـ) .
(٢) الزخرف : ٧٠

وقال : اللّهم لا تفعل . اللّهم لا تفعل . وجعل يكرر ذلك . قالت له زوجته : ما الذى دهاك ؟ قال لها : كيف لا أقسم على الله وأدعوه وقد قال سبحانه : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (١) . فأنتِ في هذه الدنيا الفانية لا أقدر عليك فيها لكثرة ما أرى من إيذائك لى ، فكيف تكونين معى فى دار البقاء ؟ أنا لا أطيق ذلك . قالت : لا تدع الله - بحقه عليك - فإنى تائبة إليه . واسأله أن يجمع بيننا فى الآخرة . فقال : اللّهم نعم .. إن كانت صادقة .

* * *

• ترضية الزوج عند الغضب :

قال أبو الأسود الدؤلى لامرأته : « إذا رأيتنى غضبت فأرضينى ، وإن رأيتُك غضبتِ ترضيتُكِ . وإلا لم نصطحب ».

وكان عند الحسن بن علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه امرأة من قريش ضجرت منه يوماً فقال لها : أمرك فى يدك - أى لها الخيار فى البقاء فى عصمته وفى أن تُطلِّق نفسها - فقالت له : أما والله لقد كان فى يدك عشرين سنة فحفظته وأحسنت صحبته ، فلن أضيعه إذا كان فى يدى ساعة من نهار . فأعجبه قولها ، وأحسن صحبتها .

وإنَّ مما يُرضى الرجل الاعتذار إليه على الفور عندما يكون الخطأ من المرأة ، فإن سقطت منه هفوة كان لا بد من الانتظار حتى تهدأ ثائرته ، ثم يكون الحديث متلطفاً فيه إلى قلبه منفرداً . والاعتراف بالحق فضيلة . وكما قال الشاعر :

إذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه ... وكل امرئ لا يقبل العذرَ مذنبُ

---

(١) الزخرف : ٧٠.

ومما هو عذر أقبح من الذنب : أن تقول المرأة لزوجها ، أو المعتذر لمن وقع الخطأ في حقه : ألا يكفيك أن أعتذر . هأنذا قلت لك : « متأسفة » أو « متأسف » .

إنه لغباء أن نتصور كلمة « متأسفة » تياراً كهربياً يستأصل السرطان فى دقائق .. يجب الاعتذار . ثم يترك للمعتذر إليه فرصة تستريح فيها نفسه ويبحث فى قلبه عن مكان يضع فيه هذا الاعتذار ، فقد لا يكون فى القلب مكان له فى تلك الآونة .

قال أحد الحكماء : « ليس لى على المسئ أكثر من اعترافه بذنبه » .

وهذا حق ، ولكن لا يجوز للمعتذر أن يردد هذه الحكمة لمن يعتذر إليه .. إنما يقولها غيره من الشفعاء له .

قالت سيدة لابنتها : لا تغضبى إزاء فلتة زل بها لسان زوجك عند غضبه . بل كونى رزينة متسامحة . ولا تقابليه بالمثل . فبذلك يدرك هفوته ، ويأسف على زلّته . وليكن حُسن الظن وحُسن التفاهم رائدكما فيزول كل ما يقع بينكما.

ويُحكى أن شيخاً من الأعراب تزوّج جارية من رهطه ، وطمع أن تلد له غلاماً فولدت له جارية فهجرها وهجر منزلها . وصار يأوى إلى غير بيتها ، فمر بخبائها بعد حَوْلٍ فإذا هى تُرَقّص ابنتها وتقول :

ما لأبى الزلفاء لا يأتينا وهو فى البيت الذى يلينا

يغضب إذ لم نلد البنينا تا للّه ما ذلك فى أيدينا

وإنما نُعطِى الذى أُعطِينا

فلما سمع هذه الأبيات دخل عليهما فى الخباء ، فقبّل رأسيهما وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

وقد أوصى أسماء بن خارجة الفزارى ابنته هنداً فقال : اعلمى أنى القائل لأمك :

خـــذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سَورتى حين أغضبُ

ولا تنقـــــرينى نقـرك الـدفّ مـــرة فـــإنك لا تـدرين كيـف المـغيبُ

ولا تُكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ويأباك قلبى . والقلـــوب تَقلّـــبُ

فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا . لم يلبث الحب يذهبُ

ورُوِىَ أن سيدة شريفة دخلت على أبيها . فلما نظر إليها دمعت عيناها وتغيَّر لونها . فقال لها والدها : ما لكِ يا بُنية ؟ قالت : يا أبت .. كان بينى وبين زوجى البارحة شئ . فغضب لكلمة بدرت منى . فلما رأيت غضبه ندمت على ما فعلتُ وقلت له : ياسيدى .. عفواً وصفحاً . فإن الذى سمعته منى خطأ ولا أعود إلى شئ من ذلك ، فأبى أن يُكلّمنى . وحوّل وجهه عنى فطفتُ حوله حتى ضحك ورَضِىَ عنى ، وأنا خائفة من ربى أن يُؤاخذنى على اللّحظات التى أحرقت فيها من دمه - ساعة غضبه - بِضع قَطرات .

فقال لها والدها : يا بُنية .. والذى نفسى بيده لو أنك مُتِّ قبل أن يرضى عنك زوجك لما كنتُ راضياً عنك ، أما علمتِ أن أيما امرأة غضب عليها زوجها فهى ملعونة فى التوراة والزبور والإنجيل والفرقان . وشدَّد اللّه عليها سكرات الموت ، وضيَّق عليها قبرها . فطُوبى لامرأة رَضِىَ عنها زوجها .

وليس صحيحاً فى كل الأحوال قول شوقى :

والشـــر إن تلقـَه بالخـير ضـــقت بـه ذرعـاً ، وإن تلقــه بالشـر يَنحسـمُ

فيُروى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بنى ، كذب من قال : إن الشر بالشر يُطفأ ، فإن كان صادقاً فليُوقِد نارين ولينظر هل تُطفئ إحداهما الأخرى ؟ وإنما يُطفىء الخيرُ الشرَّ كما يُطفئ الماءُ النارَ . وفى الحديث الشريف : « ثلاث من كن فيه آواه اللّه فى كَنَفِه ، ونشر عليه رحمته ، وأدخله جنته : من إذا أُعطِىَ شَكَرَ ، وإذا قدر غَفَرَ ، وإذا غَضِبَ فَتَرَ » .

* * *

• حسن معاشرة أهل الزوج :

الزوج فلذة كبد أمه ، وهو أمانة فى يد زوجته . فوجب أن تتلطف بصاحبة الأمانة ، وتجعلها دائماً مطمئنة على أنها لن تفقد أمانتها . وذلك يكون بالتودد إلى هذه الأم ، وإظهار الاحترام لها باعتبارها أماً للزوجين ، وأنها وسائر إخوة الزوج أبناء لهذه الأم . فلكل أخ حقوق الإخوّة من الحب والتعاون والاحترام.

وهذا من شأنه كسب قلوب الأم والإخوة ، وهو مما يُسَهِّل للزوجة الاستعانة بهم على ما عساه يحصل بينها وبين زوجها على مدى الأيام . فيكون لها منهم نعم الأزر والنصير .

* * *

• احترام مشاعر الزوج :

الزوج مرهف الحس : يحب زوجته عفيفة اللسان . لا تتحدث إلى غيره من الرجال ، ويحب أن تشاركه وجدانه وأحاسيسه . وأن تكون له وحده كما تحب هى أن يكون لها وحدها . فإذا ضمها مع زوجها مجلس لم تتبسط فى حديثها مع غيره . تكاد لا تتكلّم إلا بإذنه . وفى غيبته تراعى شعوره ، كأسماء زوجة الزبير حين أدركت غيرة الزبير ، فرفضت أن تركب مع الرجال ، بالرغم من أن الدعوة إليها موجهة من رسول الله ﷺ .

قال الإمام الغزالى : « .. وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً لم تستفهم . ولم تعاوده فى الكلام ، غيرة على نفسها وبعلها . وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله . وتُقَدِّم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها . متنظفة فى نفسها ، مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها أنّى شاء . مشفقة على أولادها . حافلة للستر عليهم ، قصيرة اللّسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج.

« ومن آداب المرأة : ملازمة الصلاح والانقباض فى غيبة زوجها ، بمعنى

ظهورها فى صورة الجادة ، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة فى حضور زوجها . ولا ينبغى أن تؤذى زوجها بحال » .

وروى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه - قاتلك الله - فإنما هو عندك دخيل . يوشك أن يفارقك إلينا » . (أخرجه ابن ماجه والترمذى . وقال الترمذى : حديث حسن غريب) .

ومن احترام مشاعر الزوج : ألا يُعاب أحد بذم مظهر أو سمة خلقية تكون فى الزوج : كالعرج والعمى والصمم ، أو أى شئ قد يُحرج الزوج لو أن الكلام كان موجهاً إليه شخصياً .

كان من الأمثال السائرة التى تجرى على لسان أخ فاضل : « ريثما تكتحل العوراء يكون السوق قد خرب » . وتزوج هذا الأخ فتاة عوراء فشطب من معجمه اللُغوى الذى يتحدث منه لفظ أعور - عوراء - وعور . وكل ما يتصل بهذه الكلمة ، وكان فى استمتاعه بها ينظر إلى كل شئ عدا ما يُستقبح منها ، وهو عينها التى تشعر بحرج منها ، كان يمحوه بأنها لا تشكل أى غرابة .. والمفروض أن تعامله بالمثل فى ظاهرة مماثلة .

قال حكيم : تزوجت فتاة أحست أننى أشعر بفارق السن فقالت : أنا أحب زوجى رجلاً أقرب إلى الكبر ، حتى أشعر بوقاره وأحس بأنه لى أب وزوج معاً ، وحتى أستفيد من تجارب عمره وحكمته ، فيعاملنى بعيداً عن طيش الشباب الذى يهز البيوت فلا تستقر إلا بعد آلام ومتاعب طويلة . إن لم تُدمَّر فى أثناء الشد والجذب والمد والجزر اللذين يكونان فى مفتتح الحياة الزوجية للشباب .

وقالت أيضاً : لقد كان خطيبى قبلك - الذى اختلفت معه من أجل الاختلاف فى المزاج الدينى - أكثر شيباً منك ، ويكبرنى أيضاً ببضعة عشر عاماً ، وقالت الأم يوماً : لقد تزوجت ابنتى (س) رجلاً كبيراً كذلك .. أحست الأم وابنتها

بشعور خاص ، فأرادتا إزالة الحرج منه عنى . فاستبدلتا بمقالتيهما فى نفسى شيئاً من الطمأنينة فى كلمات غير متكلفة .

وقد يخطئ الرجل خطأ لا يُحب أن يُؤاخذ به ، فمن الأدب ترك مؤاخذته . وإنما بعد هدوء العاصفة يجب أن يبتدع حديث عن شئ مماثل يتضح منه وجه الخطأ حتى يدرك الزوج خطأه بأسلوب المقارنة الذاتية التى تنشأ طبعياً فى نفس كل إنسان ، وذلك رحمة به من الوقوع فى جريرة المكابرة . ولعله من أجل هذا قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المُراء وإن كان محقاً ».

قد يعز على المرء أن يكون معه الحق ثم يترك الدفاع عنه . ولكن النفس العظيمة تتخلى عن شهوة الانتصار الجدلى الذى هو « لون » من « عبادات الذات » فتربط حوارها مع الآخر بهدف واضح مخلص هو الوصول بالآخر إلى الحقيقة ، فإن كشف أنه أحال الحديث إلى جدل ، وأنه يبغى باستمرار المناقشة شهوة الانتصار فى جدل ، أو أنه متشبث بخطئه العمد ، فإن من العظمة أن يتصدق على ذلك المسكين بعدم توريطه فى دفاع كاذب . وحبذا لو أشعره بذلك دون حرج له أمام آخرين ، وأن يُلَقِّنَ درساً فى أن الوقت هو الحياة . والحياة أعز من أن تُبَدِّدَ فى جدل ليس وراءه طائل .

من احترام مشاعر الرجل ألا يُعاب أهله . بل وأن يَدَافَع عنهم فى غيابهم . فذلك يرضى الزوج ، لأنه دفاع عن الزوج نفسه بطريق غير مباشر . بل وكالأهل : أصدقاء الزوج الحميمون ، وشيوخه ، وإخوانه فى مذهبه الاجتماعى ، لأن أخوة المبدأ لُحْمَةٌ كلُحمة دم القُربى وماء المصاهرة ، وعيْبُ المبدأ وتجريح رجاله عيب وجرح للزوج .

فإذا كان ثَمَّ ما يعيب شرعاً . عُرِضَ النصح فى أسلوب استفهامى ، حتى

يدرك الزوج الحقيقة ، ويصل إليها فى رفق ، وعلى الزوج مثل ذلك ، وشعار الاثنين قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [1] . تلك الكلمة التى جعلها الله واسطة العقد فى القرآن إن ذهبت تعد كلماته من أوله أو من آخره وجدتها الملتقى لنصفى القرآن . كأنها تقول : على التلطف يدور كل ما فى القرآن من سلوك وتشريع .

* * *

• شكر الصنيع :

كل إنسان يحب أن يرى تقدير إحسانه . وما أجمل كلمة « شاكرة » أو « شاكر » ، أو كلمة رسول الله ﷺ : « جزاك الله خيراً » تصدر إقراراً بالفضل لموليه .

إنها تُغرى بالمزيد من التفضل والإحسان ، والإحسان يزيد المودة ورباط القلوب . قال عليه الصلاة والسلام : « خير النساء التى إذا أُعْطِيَتْ شكرت ، وإذا حُرِمَتْ صبرت ، تُسرك إذا نظرت ، وتُطيعك إذا أمرت » .

وليس من الأدب أن يُقال فى الحياة الزوجية : لا شكر على واجب . فعلى فاعل الواجب ألا ينتظر الشكر من الناس . ولكن على الناس أن يشجعوه على ذلك الخُلق الطيب بالثناء عليه .

شُكْر المرأة زوجها ، والثناء عليه فى غيابه .. يُزيده إعزازاً لامرأته ، إذ أنها بثنائها عليه فى غيبته عند أهلها وأصدقاء الأسرة .. تغلق الباب على الشيطان .

وأثنت امرأة - لأمها - على كرم زوجها فقالت : يا أماه .. من نشر ثواب الثناء فقد أدى واجب الجزاء . وفى كتمان الشكر جحود لما أُوْجِبَ منه ، ودخول فى كُفْرِ النِعَم .

---

(١) الكهف : ١٩

إن الاولاد حين ينشأون يسمعون كلمة « أشكرك » عند تقديم كلمة طيبة . أو أى مساعدة ، فإنهم يعتادونها خارج البيت .

وعندما يسمعون كلمة « آسفة » و « أعتذر » عندما تسقط من المرأة خطيئة فإنهم كذلك يعتادون هذا الخُلق : ويتكوَّن لديهم ميزان سليم ، وحِسٌّ مُرهف ، يُقَدِّرون به المواقف المختلفة .

ورهافة الحس ، واعتياد التقدير عادة تتكوَّن ، فتمتد إلى كل مسائل الحياة .

* * *

• الوفاء للزوج :

الزوجة الوفية حلم عزيز حلو عند الرجل ، لا يحب أن تُفتح عينه على فراقه .

ومن وفاء الزوجة ألا تُفارق زوجها إن أصابته ضرّاء فى ماله أو بدنه ، وأن تظل تقاسمه الحياة فى مُرِّها كما قاسمته إياها فى حلوها ، وقد قيل : « خير النساء المبقية على بعلها . فهى تُؤثر راحة زوجها على راحة نفسها » .

يُحكى أن أعرابياً من بنى عُذرة شكا إلى معاوية بن أبى سفيان عامله مروان ابن الحكم بالمدينة ، لرغبته فى التفريق بينه وبين زوجته - على رغمها - لفقر نزل به بعد عز ، ولرغبته فى أن يتزوج منها لمكانها من الجمال ، فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها مازحاً : نخيِّرها بيننا .

فقال الزوج فى ثقة من زوجته : ذلك إليك يا أمير المؤمنين .

فتحوَّل معاوية نحوها وقال لها : ياسُعْدَى : أيُّنا أحبُّ إليكِ . أمير المؤمنين فى عزه وشرفه وقصوره ، أم مروان بن الحكم فى غضبه واعتدائه ، أم هذا الأعرابى فى جوعه وأطماره ؟ - ثيابه البالية - فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابى وأنشدت تقول :

هـذا . وإن كـان فى جـوع وأطمار ... أعـز عنـدى من أهـلى ومن جـارى

وصاحب التـاج أو مـروان عامـله ... وكـل ذى درهـم منهـم ودينـارِ

ثم قالت : لست - والله يا أمير المؤمنين - لحدثان الدهر بخاذلته . ولقد كانت لى معه عيشة راضية . وأنا أحق من صبر معه على الضراء والسراء وعلى الشدة والرخاء . وعلى العافية والبلاء . وعلى القسم الذى كتب الله لى معه .

فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها . وأمر لها بعشر آلاف درهم وألحقها بصدقات بيت المسلمين ، كما نفعل فى عصرنا الحديث بفرض مرتب أو معاش من (وزارة الشئون الاجتماعية) .

وقال الأصمعى : دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى . فإذا جارية تبكى عند قبر ، وعليها من الحُلِىِّ والحُلَلِ ما لم أر مثله . فالتفتُ إلى صاحبى وقلت له : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال : لا والله ، ولا أحسبنى أراه .

فقلت لها : يا هذه . . أراكِ حزينة ، وما عليك زِىُّ الحزن ، فأنشدت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى ... رهينة هذا القبر يافَتَيَانِ

وإنى لأستحييه ، والقبر بيننا ... كما كنت أستحييه حين يرانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى ... بالاً ، ويكثر فى الدنيا مؤاساتى

قد زرتُ قبرك فى حُلِىٍّ وفى حُلَلٍ ... كأننى لست مِنْ أهل المصيبات

أردتُ آتيكَ فيما كنت تعرفه ... أن قد تُسَرُّ به من بعض هيئاتى

فمن رآنى رأى عَبْرَى [1] مُوَلَّهَةً ... عجيبة الزىِّ تبكى بين أمواتِ

ولعل مما يدخل فى هذا الباب ما روى عن عائشة أنها كانت لا تُغطى رأسها حين دُفِنَ زوجها وأبو بكر فى حجرتها . فلما دُفِنَ عمر معهما أصبحت تُغطى رأسها دائماً .

---

(١) سعادة الزوجين جـ ٢ ص ١١٨ - ١١٩ .

ولما حاصر « كونراد الثالث » عاهل ألمانيا دوق « بافاريا » فى قصره وانتصر عليه أمر بقتله مع جميع رجاله ، فالتمست الدوقة ونساء قصرها أن يُسمح لهن بالخروج من القصر إلى مكان أمين حاملات ما يستطعن حمله ، فأجابهن إلى ملتمسهن ، فجعلت كل منهن زوجها على ظهرها وخرجت به . فلما رأى الإمبراطور ذلك أعجب بوفائهن لأزواجهن وعفا عن هؤلاء جميعاً .

ومن أفضل صور الوفاء فى أرشيف الواقع ما وقع عام ٢٨٦ هـ إذا رفع ولى أمر الزوجة على زوج ابنته دعوى يطالبه بخمسمائة درهم قيمة صداق ابنته ، وفى المحكمة طلب القاضى الشهود ، فلما حضروا قال القاضى للمرأة : أسفرى عن وجهك ليراك الشاهد ويُشير إليكِ أنَّكِ صاحبة الحق . . فقال الزوج : والله لا يرى وجهها أجنبى ، أنا مُقِرٌّ بالدعوى بلا حاجة إلى شهود . وقالت المرأة : صدق أبى ولكننى أُبرىء زوجى من صداقى الذى فى رقبته فى الدنيا والآخرة ، فقال القاضى : يُكتب هذا فى مكارم الأخلاق (١) .

* * *

• الإحداد على الزوج :

قال الغزالى : « ومما يجب على الزوجة من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها - ألا تُحِدَّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر ليال (كما أنها لا تحد على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام فقط) وتتجنب الطِّيب والزِينة فى هـذه المدة .

قالت زينب بنت أبى سلمة : دخلتُ على أم حبيبة زوج النبى ﷺ حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب . فدعت بطيب فيه صُفرة خَلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ثم مسَّت بعارضيها ، ثم قالت : والله ما لى بالطيب من حاجة . غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ

---

(١) رحمة الاسلام للنساء : للشيخ محمد الحامد ص ٥٩ .

على ميت أكثر من ثلاثة أيام : إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » (رواه البخارى ومسلم) .

ويلزمها لزوم مسكن النكاح - أى الإقامة به - إلى آخر الفترة - وليس لها الانتقال إلى أهلها ، ولا الخروج إلا لضرورة .

* * *

• العفة والأمانة :

جاء فى الأثر : « من حفظ ما بين فقميه [1] ورجليه دخل الجنة » ، وهو بمعنى الآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ ، والآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [2] .

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذى تُقَوَّم به تربيتها ، والسلاح الذى تُدافع به عن شرفها وكرامتها . وهو عندها بمثابة القوة عند الرجل .

وعفاف المرأة فى الأسرة هو الركن الأول الذى تتوطد عليه دعائم التربية ، والسبيل الأقوم الذى تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء .

ولا فرق بين أن يكون العَفاف فى الأم فطرياً أو اكتسابياً لينتقل إلى نفوس بناتها فينشأن معه قويات الإرادة ، عزيزات النفس ، ويتخذنه دليلهن الصادق الأمين فى طريق المستقبل حيث تسير الفتاة - غالباً - مدفوعة بقوة الوهم ، مجذوبة بتيار الضعف النسائى ، فإذا كانت عفيفة بالفطرة والنشأة استطاعت أن تقى نفسها طيش الأهواء وعمى الحب .

هكذا يكون العفاف سندها فى الضعف ، ومرشدها فى الغواية ، ومصباحها فى الظلام ، وزينتها مدى الأيام ، وأساس سعادتها وسعادة أسرتها فى المستقبل ، ولا يتم للزوجين سعادة فى الحياة ، ولا يهنأ لهما عيش إذا فارقتهما فضيلتا الأمانة والعفاف .

---

(١) الفقمان : اللحيان أى الفم .

(٢) المؤمنون : ٣ و ٥

والزواج الحقيقى لا يتم إلا باختصاص كل من الزوجين بالآخر ، ولا سبيل إلى ذلك الاختصاص إلا بسلوك سبيل العفة ، وفى انتهاك حرمة هذه العفة هدمٌ لسياج الأنساب . وفى هذا من الشقاء والبلاء ما فيه .

والزوجان على السواء مطالبان بتأدية هذه الأمانة العظمى ، أمانة الحرص على الأعراض وسلوك سبيل الحياء . غير أن المتعارف عليه أن المرأة مطالبة بذلك أكثر من الرجل ، لأن اللّه اختصها بالمحافظة على النسل فى بطنها . وفى الحديث الشريف : « الحياء حسن ، ولكنه من المرأة أحسن » .

وأخرج الدارقطنى عن ابن عباس أن امرأة أتت رسول اللّه ﷺ فجلست إليه فكلمته فى حاجتها وقامت . فأراد رجل أن يقعد فى مكانها ، فنهاه النبى ﷺ أن يقعد حتى يبرد مكانها .

ولا عيب من العيوب النفسية أو الجسمية يُضَيِّع هناء الزوجين ويُذهب بسعادتهما ويمحو غبطتهما . . كخيانة المرأة للرجل فى نفسها ، فخير ما يصبو إليه الرجل فى زوجته عفافها الذى هو سلاحها ، وقد أشار اللّه إلى وجوب العفة والصون فى كتابه فى سورة النور : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [1] ... الآيتين .

وفى الحديث الشريف : « إن اللّه إذا أراد أن يُهلك عبداً نزع منه الحياء . ثم لم تلقه إلا مقيتاً »[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل دين خُلُقاً . وخُلُق هذا الدين الحياء » . وقال : « إن اللّه يحب الحييَّ الحليم ، ويبغض الفاجر البذىء » . وقال : « إن شر الناس عند اللّه من خافه الناس إتقاء فُحشه » .

أقول : وشر الزوجين من خافه الآخر إتقاء فُحشه .

---

(١) النور : ٣٠ (٢) مقيت : ممقوت محتقر عند الناس .

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها : أى النساء أفضل ؟ فقالت : « التى لا تعرف عَيْب المقال ، ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها والإبقاء فى الصيانة على أهلها » .

ومن عجيب عصرنا أن البنت تنتقى ألذع العبارات ، وأجرح الكلمات وأقبح الأمثال وتُعد هذا من الفطنة والتفوق الاجتماعى ، ولا تدرى قول المؤمنات والمؤمنين : « أفضل النساء من لا تعرف عيب المقال » .

وقال أعرابى لأولاده يَمُنُّ عليهم :

فسأول إحسانى إليكم تَخَيُّرى ... لماجدَةِ الأعراق بادٍ عَفافُها

وقالت ليلى الأخيلية :

وذى حاجة قلنا له : لا تبح بها ... فليس إليها - ما حييت - سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه ... وأنتَ لأخرى صاحب وخليل

وقال بعض الحكماء : النساء هنَّ معراج الشرف بعفتهن ، ونير المصائب بابتذالهن .

وكان أهالى أثينا القدماء يمنعون الرجل الذى يجتمع بغير زوجته ويعاشرها ، أو يخالط المتبرجات ، أن يكون من أرباب مشورة المدينة ، لأنه لا يُؤمَن على المصلحة العامة .. وبتعبير الشريعة الإسلامية : ساقط العدالة ومجروح .

وقد جاء بالمادة (٤١٦) من الشريعة العبرية : « يجب على الزوجة ألا تخون زوجها ، ويُطلب منها مساعدته وإعانته فيما يحتاج إليه ، ويجب عليها أن تتودد إليه ، وأن تُظهر له الميل والحنان ، ويحرم عليها كل التحريم الاختلاط بغيره ولو كان إبناً أو أخاً . وإذا وُجِدَ معها أجنبى فى مكان وَجَبَ أن يكون المكان مفتوحاً . ولها أن تجتمع بالصبى الذى لم يبلغ التاسعة من عمره » .

* * *

• كيف نحافظ على عفاف المرأة :

قال المرحوم على فكرى [1] : « ولما كانت البيئة التى تنشأ فيها البنت والمؤثرات الخارجية تجعل التهذيب وحده غير كاف لتقويم أخلاقها ، نظراً لأن الله خلق المرأة ضعيفة وميّالة إلى دواعى الشهوات . وجب أن يُحافظ على البنت من كل ما يُنشىء فى نفسها تأثيراً سيئاً . وذلك بإبعادها عن كل ما يهيج عواطفها تهييجاً تُخشى عواقبه ، فلا يصح أن تغشى دور الملاهى والمراقص . كما أنه يحسن بها عدم قراءة الروايات الغرامية ، وعدم الاختلاط بمن فسدت أخلاقهن من الفتيات .

ويجب أيضاً - لمصلحة الفتاة - ألا تجتمع بالمتزوجات من صديقاتها : أما الاختلاط بالرجال فهو أسوأ ما يكون . ويتحتم ألا تختلط الفتاة برجل ما . قال أحد الحكماء : « العفة حجاب يُمَزِّقُهُ الاختلاط » ، وفى المثل الألمانى : « يجب أن تُحفظ البنت بين أربعة أناجيل ، أو فى وسط أربعة جدران » .

والتذكير بالله وبالآخرة وما أعدّه الله فيها للشرفاء الأتقياء ، أو العصاة المنحرفين ، هو أعظم الأسباب لوجود العفيفة والعفيف .

وقيل لبعض الأعراب ، وقد طال حبه لجارية - فتاة - : ما كنت صانعاً لو ظفرت بها ولا يراكما إلاّ الله تعالى ؟ . قال : « أخاف الله . ولا أجعله أهْوَنَ الناظرين ، ولكن أصنع معها ما أصنع بحضرة أهلها ، حديث طويل ، ولحظ كليل - أى يغض بصره - وترك ما يكرهه الرب وينقطع به الحب » - يعنى الإشباع الجنسى .

ودخل رجل غيضة له فقال : لو خلوت هنا بفلانة فلم يرنا أحد . فسمع صوتاً ملأ الغيضة : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [2] .

---

(١) سعادة الزوجين جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) الملك : ١٤

وهذا كما قال نابغة بنى شيبان :

إن مـــن يركـــب الفواحـش سراً ... حـين يخـلو بســره غـير خـــال

كـيف يخـلو وعـــنده كـاتبـــاه ... شـاهـــداه وربـــه ذو الجـــلال

ويروى أن سلاَّمة المغنية قالت لعبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى الذى سماه أهل مكة قسًّا لكثرة عبادته ، وكان معجباً بغنائها : يا عبد الرحمن ، أنا والله أحبك . فقال : وأنا والله أحبك . فقالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال وأنا والله أحب ذلك . قالت : فما يمنعك ؟ فو الله إن الموضع لخال . قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ الأَخِـلاَّءُ يَوْمَـئِذٍ بَعْضُـهُمْ لِبَعْـضٍ عَـدُوٌّ إِلاَّ الْـمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، وأنا أكره أن تكون خُلَّةٌ ما بينى وبينك تئول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسُك .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، حتى إذا جَنَّ عليهم اللَّيل أووا إلى غار فى جبل فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعلَّه يُفْرُجها ، فقال رجل منهم : اللَّهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار ، كنت أرعى عليهم ، فإذا رُحتُ عليهم فحلبت بدأت بوالدىَّ أسقيهما قبل ولدى . لا أغْبِق (٢) قبلهما أهلاً ولا مالاً ، وإنه نأى بى الشجر (٣) ، فما أتيتُ حتى أمسيتُ فوجدتهما قد ناما ، فحلبتُ لهما غَبوقهما وقمتُ عند رأسيهما أكره أن أوقظهما . وأكره أن أبدأ بالصِّبْية قبلهما ، والصبية يتضاغَون (٤) عند قدمى ، فلبثتُ (٥) والقدح على يدى - أنتظر استيقاظهما ، حتى بَرِقَ الفجر - أى أضاء - فاستيـقظا

---

(١) الزخرف : ٦٧ (٢) الغَبوق : هو شرب العَشى مقابل الصَّبوح . والمراد : لا أُقدِّم عليهما أحداً فى شرب نصيبها من اللبن ، والمراد بالأهل : الأولاد ، وبالمال : الرقيق والخدم .

(٣) أى بعد الشجر كناية عن بعد المراعى . (٤) يتضاغون : يصيحون ويبكون .

(٥) مكثت وانتظرت .

فشربا غبوقهما . اللّهم إن كنتُ فعلت ذلك إبتغاءَ وجْهِكَ فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون منه الخروج .

وقال الثانى : اللّهم .. كانت لى بنت عم كانت أحبَّ الناس إلىَّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألَمّتْ بها سنة من السنين [1] فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلى بينى وبين نفسها . ففعلتْ . حتى إذا قدرتُ عليها قالت : لا أُحِـلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه . فتحرجتُ من الوقوع عليها . فانصرفت عنها . وهى أحبُّ الناس إلىَّ - وتركتُ الذهب الذى أعطيتها . اللّهم إن كنتُ فعلتُ هذا ابتغاء وَجْهِكَ فافرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللّهم إنى استأجرت أُجراء فأعطيتُهم أجرَهم غير رجل واحد تركَ الذى له وذهب ، فثَمّرْتُ أجره حتى كثرت منه الأموال . فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد اللّه . أدِّ إلىَّ أجرى . فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : ياعبد اللّه ، لا تستهزىء بى . فقلت : إنى لا أستهزىء بك . فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً . اللّهم فإن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وَجْهِكَ فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون .

وحين حرَّم اللّه النظر إلى الأجنبى والأجنبية - وإن كان تقياً وشريفاً وقريباً غير محرم - فإنما يسد الذريعة إلى الشيطان ويحمى العفاف . سُئِل رسول اللّه ﷺ عن دخول الحم على المرأة فقال : « الحمو الموت » أى الأحماء كالموت .

ومن كلام السيد المسيح : « النـظر يُوزِّع فى القلب الشهوة ، وكفى بها خطيئة » .

---

(١) يريد أنها أصابتها سنة فيها قحط وجدب .

وقال الشاعر :

فتصبَّرْ ولا تشمْ كلَّ بَرْقٍ ... رُبَّ برقٍ فيه صواعقُ حَيْنِ

وإغضض الطرْفَ تسترح من غرام ... تكتسى فيه ثوب ذُلٍّ وَشَيْنِ

فقيادُ الفتى موافقة النفـ ... ـس ، وبدءَ الهوى طموحَ العَيْنِ

ونظر أشعب ابنه ينظر إلى امرأة نظرة طويلة فقال : يابُنى .. نظرك هذا يُحَبِّل .

وقال بعضهم : إن اللَّذة مشوبة بالقُبح . ففكروا فى انقطاع اللَّذة وبقاء القُبح .

وقال أبو الفرج فى كتابه « الأغانى » عند ترجمته لجميل بثينة : سمعت أُمَّةُ لبثينة أن جميلاً سيكون عندها الليلة ، فأخرجت والد بثينة وأخاها ، فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجرَةً - أى ناحية - منها ، يُحدِّثها ويشكو إليها بَثَّه - أى حار عواطفه - ثم قال لها : يا بثينة ، أرأيتِ وُدِّى إياكِ وشغفى بكِ . ألا تجزينيه ، قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المتحابَّين ، فقالت له : ياجميل أهذا تبغى ؟ واللّه لقد كنت عندى بعيداً منه . ولئن عاودتَ تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً . فضحك وقال : واللّه ما قلتُ لك هذا إلا لأعلم ما عندكِ فيه . ولو علمت أنكِ تجيبيننى إليه لعلمتُ أنك تجيبين غيرى . ولو رأيتُ منك مساعدة عليه لضربتُكِ بسيفى هذا ما استمسك فى يدى .. ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُكِ هجرة الأبد ، أوَ ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرَّت بلابله

بِلا . وبأن لا أستطيع ، وبالمُنى ... وبالأمل المرجوِّ قد خاب أمله

وبالنظر العَجْلى ، وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

فقال أبوها لأخيها : قم بنا ، فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من

لقائها . فانصرفا وتركاها . ومع هذا فإن الشرع يعتبر انصرافهما وتركه معها - رغم هذا الطهر - خطأ .

فوجود المُحْرِم أو الزوج مع المرأة يكون دائماً وقاية لها من النزوات ووسوسة الشياطين إنساً وجناً ، ولهذا شرع الله ألا تُسافر امرأة إلا ومعها مُحْرِم . ومَنْ تَرخَّصَ من الفقهاء قال بجواز حج الفريضة برفقة صالحات عند عدم المُحْرِم .

قال الهيثم بن عدى : قدمت امرأة شريفة من بنى كلب مكة للحج ، وكانت من أجمل النساء - فرآها عمر بن ربيعة ، فجعل يكلمها ويتبعها كل يوم فتقول له : إليك عنى [1] فإنك فى حَرم الله وفى أيام عظيمة الحُرمة ، فألحَّ عليها . فخافت الشهرة - أى الفضيحة - فقالت لزوجها ذات يوم : إنى أحب أن أتوكأ عليكَ إذا رُحْتُ إلى المسجد . فراحت متوكئة على زوجها فلما أبصرها عمر ولّى . فقالت : على رِسلك [2] يا فتى :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مربض المستشفر[3] الحامى

والتفريق بين الإناث والرجال فى النوم ، وقلة المحادثة والمناجاة بين الجنسين وقاية للعفاف ، وكما يقول المثل المصرى « حُرُّ النساء بُعْدُ الرجال عنهن » أى حرارة العفة تلازم صون المرأة من أن تقترب فى نومها أو حديثها مع رجل ..

قيل لابنة الخُس - وهى هند بنت الخُسّ بن حابس بن قُرَيْط الإيادية - وكانت معروفة بالفصاحة ، ورُوِىَ لها أمثال كثيرة تداولتها العرب ، وكانت قد زنت بعبدها ، فأتت بغلام ، فقيل لها : زنيتِ وأنت سيدة قومك ؟ فقالت : قرب الوساد ، وطول السوار . - والوساد هو المخدة ، والسوار : المسارة ، وقيل المزودة - . ولهذا فرض الإسلام تنحية العبيد والخدم عن الاطلاع على المرأة فى

---

(١) بمعنى اذهب ، وابتعد .

(٢) على رسلك : بمعنى مهلاً .

(٣) المستشفر : الكلب إذا أدخل ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه - وهذا هو الاستشفار والأمثال لا تغير ، لهذا لا نجد زوجها يغضب من ضربها المثل المذكور .. ولكن على الزوجين أن ينتقيا الأمثال التى لا يكون فيها مساس بكرامة السامع .

زينتها ، وأمر بالتصوُّن من الخدم القادرين على الجماع ، فلا يُسمح للخادم برؤية المرأة فى زينتها إلا كما قال ربنا : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (١) .

وما انهارت البيوت إلا من الخدم بسبب عدم التحفظ .

يُروى أن « يسار الكواعب » كان عبداً لبنى غُدانة ، ولم يمنعه سقوط منزلته الاجتماعية من مراودة مولاته عن نفسها فنهته مرة بعد مرة وألَحَّ فوعدته . فجاء ، فقالت له : إنى أريد أن أبخرك فإن رائحتك متغيرة ، فوضعت تحته مجمرة ، وقد أعدت له حديدة حادة فأدخلت يدها فقبضت على متاعه ، وهو يرى أن ذلك لشىء . فقطعته بالموسى فقال : « صبراً على مجامر الكرام » فذهبت مثلاً ، وصار هو مثلاً .

وشك أبرويز فى أحد رجاله واختبره فوجده زانياً خائناً فوسمه بسمة الزناة ونفاه من المدائن . فأخذ موسى وجَبٌّ نفسه - أى قطع عضو التذكير - وقال : « من أطاع عضواً صغيراً . فسدت سائر أعضائه » . ومات من ساعته .

ورضى الله عن ابن عباس إذ قال : « الشيطان من الرجال والنساء فى ثلاثة منازل : فى النظر ، والقلب ، والفرج ».

وفى المخالطة نظرات وألفة قلب . ويسر اقتراب يقضى إلى الخناء ، ولو كان اقتراباً من راهبة فى دير . قيل لأبى الطحّان القينى : خبرنا عن أدنى ذنوبك . فقال : ليلة الدير . قالوا : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلتُ على دير أنيّة - صاحبة الدير - فأكلتُ طُفَيْشلاً - نوع من المرق - بلحم خِنزير ، وشربتُ من خمرها . وزنيتُ بها ، وسرقتُ كساءها ومضيت .

وذوو العفة الحريصون على عفاف النساء يتحاشون زيارتهن عند غياب أزواجهن مهما كانت الصداقة ، كما يحذرون مداعبة الأطفال أمام أمهاتهم ، ففى هذا كسب لعراطفهن ، كما قال عقيل بن عَلقة :

---

(١) النور : ٣١

ولست بصادر عن بيت جارى صدور العير غَمْرَةُ الورود [1]
ولست بسائل جارات بيتى أغُيَّاب رجالك أم شهود
ولا ألقى لذى الودَعات [2] سوطى لألهيه . وَرَبَّته أريد

أو كما قال مسكين الدارمى :

لا آخذ الصبيان ألثمهم والأمر قد يُغزى [3] به الأمر

أو كما قال صاعد اللُّغوى صاحب « الفصوص » والذى وفد إلى الأندلس :

إذا رأيت صبىَّ القوم يلثمه ضخم المناكب ، لا عم ولا خال
فاحفظ ثيابك منه أن يدنسها ولا يغرنك حسن الحال والمال

ومع المبالغة فى هذا التعميم الذى قاله صاعد ، فإن الأصل موجود بلا ريب قل أو كثر ، والاتفاق على أن المرأة فى خروجها ومقابلاتها واختلاطها بالرجال إنما تُثير وتُثار .

قال عبد الله بن المقفع : إياكَ ومشورة النساء فإن رأيهن إلى أفن [4] وعزمهن إلى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأوصى لبالها ، وأدْوَم لجمالها ، وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة [5] ، فلا تَعْدُ [6] بكرامتها نفسها ، ولا تُطمعها فى أن تشفع عندك لغيرها .

---

(١) العير : الحمار ، وغمره الورود : لم يرتو عند وروده الماء ، ففيه حاجة إلى العودة .
(٢) ذى الودعات : الطفل (٣) يغرى : يقصد - من قولهم : عرفت مغزاك ، أى مقصدك .
(٤) الأفن - بسكون الفاء : النقص ، وبالفتح : الضعف .
(٥) كلمة فارسية بمعنى المدير المالى : وكيل الخزانة . (٦) فلا تتجاوز .

وهو قول سديد ، غير حديثه عن المشورة ، فالمروى أن رسول الله ﷺ استشار زوجاته ، وفرّق بين المشورة لاستشفاف وجه الصواب ، وبين الانصياع لرأى المرأة دون وزن له ، كما أن إطماعها فى أن تشفع لغيرها خطأ فى مسائل السياسة العامة والأمور الجسام ، وفيما يتصل بالرجال .

ولأن استشفاعها لمخطىء يبعث الريبة فى قلب رجلها ، ويجب عليها أن تتحاشى ذلك ، بل على المرأة أن تنأى عن كل المشكلات البعيدة عن مملكتها واختصاصها .

ويُروى أن خالد بن يزيد بن معاوية وقع يوماً فى عبد الله بن الزبير ، وأقبل يصفه بالبخل ، وكان خالد زوجاً لرملة بنت الزبير ، أخت عبد الله ، فلم تنبس ببنت شفة[1] ، وأطرقت . فقال لها خالد : مالك لا تتكلمين ؟ أرضاً بما قلته . أم تنزهاً - أى ترفعاً - عن جوابى ؟ . قالت : لا هذا ولا ذاك . ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال ، إنما نحن رياحين للشم والضم . فما لنا وللدخول بينكم ؟ فأعجبه قولها ، فقام وقَبّل ما بين عينيها .

فما بال نساء اليوم يدخلن فيما بين أزواجهن وبين غرباء لا يمتون إليهن بصلة ؟

وقال العلماء فى الآية : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[2] .

إنما قَدّم الزانية لأن الزنا فى الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه فهى التى تُقَوِّض عفافه فيقع على عفافها يهدمه .

* * *

(١) بنت الشفة : الكلمة ، وتنبس وتهمس : تنطق .

(٢) النور : ٢